د. ساسون سوميخ

مطالعات في ادب يوسف ادريس (١)

قصة «الناس»
ودلالتها الاجتماعيه

كراس عن المقال المنشور في «الشرق»
العدد السادس (السنة الثانية) ص ٥ ـ ١٠
تشرين ثاني ١٩٧١

مطالعات في أدب يوسف أدريس

قصة "الناس"

ودلالتها الاجتماعية

بقلم : الدكتور سامون شميخ - جامعة تل ابيب

مقدمة : للاقصوصة كفن ادبي مزايا عديدة بالمقارنه مع باقي الفنون الادبية فهي كالشعر وبخلاف الروايـــة او المسرحية تمتاز بقدر عظيم من التركيز والمباشرة · صحيح أن للرواية مثلا امكانيات لا نجدها عـــادة في القصة القصيرة كالنظرة البانوراميه الشاملة للحيـــاة والتعمق السيكولوجي وتتبع الشخوص الـــرئيسيه في مراحل شتى ومواقف مختلفة · ولكن الاقصوصة ايضا لا تنتقصها الحيلة الفنية مما يمكنها من ان تجعل من اللحظة العابرة صورة مصغرة للحياة والنفس البشرية على حد سواء ·

ويوسف ادريس (ولد عام ١٩٢٧) يعد بحق مـــن اهم من مارسوا هذا الفن في الادب العربي المعاصر ، واكثر مؤلفاته من هذا النوع(١) · وهو لم يختر هذا الفـــن الادبي لسهولته او سرعته (وهذه المفاهيم عن الاقصوصة هي ابعد ما تكون عن الحقيقة) وانما اختاره بهدى من احساس باطني بأن هذا الفن انسب الفنون الادبيـــة لمواهبه واتجاهه الشخصي · ورغم ان ادريس قضى وقتا ليس بالقصير وبذل جهودا لا يستهان بـــها في عالـــم المسرح والرواية والمقالة فانه أكب قبل كل شيء عـــلى اقصوصة يصقلها ويطورها حتى حازت على اعجـــاب القراء والنقاد ، وحتى على اعجاب المترجمين عامة فنقلوا الكثير من اقاصيصه الى الانجليزيه والفرنسية والروسية والعبريه وغيرها(٢) ·

وادريس ، شأنه شأن كل اديب يحترم رسالته ، لايكل عن البحث والتجربه ، وهكذا مر باطوار مختلفة متعددة سواء في الاسلوب او المضمون ·

ومجموعاته القصصية السبع التي صدرت حتى الان (ارخص ليالي ١٩٥٤ ، جمهورية فرحات ١٩٥٦ ، أليس كذلك ١٩٥٧ ، حادثة شرف ١٩٥٨ ، العسكري الاسود ١٩٦٢ ، لغـة الآ آي ١٩٦٥ ، النداهـــة ١٩٦٩) — تضـم عـوالم متـباينة ، متداخلـــة احـيـانا ، متنافرة احيانا اخرى،اجواؤها منها القروي المصري ومنها القاهري، نظرتها الى الحياة تتراوح بينالتفاؤل والتشاؤم مبناها الادبيمنه البسيط ومنه المعقد المتشابك، اسلوبها بعضه واقعي بسيط وبعضه رمزي حديث حتى ان بعض كتاباته الاخيرة تنتمي الى ادب اللامعقول ·

وسنحاول في هذه المطالعات ، التعرف معا على بعض النماذج المختلفه ·· اسلوبا ومضمونا ولبندأ بقصـــة «الناس» ، وهي اقصوصة نشرها مؤلفها ضمن مجموعة «أليس كذلك»(٣) التي صدرت عام ١٩٥٧ (ص ٤٩ — ٥٣) ولكن قبل الحديث عن القصة ها هو نصها باكمله·

النـــــاس

قصة بقلم يوسف ادريس

كان في بلدنا شجرة (طرفة) · لم تكن كبيرة ولا عالية أو ذات سيقان وفروع · كانت ضئيلة الحجم ، قصيرة قميئة ورقها كورق العبل ، رفيع واسطواني ، ولونهـا قاتم ، ولا تعرف ربيعا أو خريفا فهي تورق على الدوام ، ولا تعرف ضعفا ولا قوة ، فهي لاتنمو ولا تصغر ، ولم يزد حجمها أو ينقص طوال اجيال ·

ولا يدري أحد كيف نبتت تلك الشجرة في بلدنا اذ ان شجر الطرف نادرة الوجود في الارض الطمى فهو لا ينمو الا في مناطق المستنقعات · وكذلك لا يدري أحـد لماذا اختارت ناحيتنا بالذات ·

كل ما نعلمه أن أهل بلدنا اعتقدوا فيها ، ونظـــرا لوحدانيتها حف بها نوع من التقديس ، وآمن الناس أن لابد وراء وجودها سر باتع وكبير ·

ومنذ أجيال وأهل بلدنا لا يتبركون بها فقط ، ولكنهم يستخدمونها كدواء لامراض العيون · ما من كائن وجعته عينه الا ووصف له أحدهم ورق الطرفة · تذهب بعـــد الفجر الى الشجرة وتنتظر الى ان يهبط الندى ، ثم تأخذ عدة عقل من أوراقها وتكسرها ، فيسيل منها ماء لـــزج تقطر في العين الموجوعة منه قطرتان ، لاثالـــث لهما ، وباذن واحد أحد يحل الشفاء ·

وأغرب ما في الامر أن الشفاء كان يحل فعلا · صحيح انه في احيان كثيرة لم يكن يحل الشفاء · أحيانا كان يتضاعف المرض ، واحيانا نادرة كان يحل السعمى أو العور ، ولكن الناس لم يكونوا يعزون الفشل الى ورق الطرفة بقدر ما يعزونه الى نجاسة المريض مثلا أو أحد من أهله ، أو ان المرض قد زاد واستمكن ، أو أنك لابد قد أخطأت ولم تنتظر حتى يهبط الندى ·

ووعينا نحن فوجدنا شجرة الطرفة من معالم بلدنا الازلية ، تحف بها القداسة وتكتنفها الاسرار ، فكنا نخاف منها ونرهبها ، ونتخيلها بقامتها القصيرة وورقها الرفيع المسنون كعجوز شمطاء تقع الطريق الى الترعة ، أو كأنها خالتنا أم الغول ·

وشببنا فوجدنا اعتقاد أهل بلدنا فيها لا يتزلزل أو يصيبه وهن · غزا الطب الريف ، وافتتحت في البنادر عيادات رمد ومستشفيات ، وهم مصرون على تلك الشجرة ، فخورون بها · يحمدون الله على وجودها في بلدنا دون سواها ، ويكنون لها أعمق التقدير حتى ليكاد الواحد منهم يقرأ لها الفاتحة اذا ما مر عليها ·

والعجيب أن الاعتقاد فيها كان شاملا · الكل يؤمن بها الكبير والصغير ، والفقير وصاحب القرشين · بل امتد هذا الايمان الى ما جاورها من قرى ، وأصبح من المناظر المألوفة في بلدنا ان ترى اناسا جالسين بعد الفجر حول شجرة الطرفة ينتظرون في صمت وفي رهبة ، هبوط الندى ·

وأصبحنا تلامذة، وتعلمنا، وعرفنا التاريخ والجغرافيا والهندسة والطب وقانون الغازات لبويل ·

وبدأنا نكفر بشجرة الطرفة ·

وكان أكثرنا حماسا ابن الصراف الطالب بكلية الزراعة الذي لم يكفه الكفر والالحاد بالطرفة بل راح يضيق بأهل بلدنا أنفسهم سخافتهم الجامدة الضيقة التي تحجرت على الايمان بشجرة لا حول لها ولا قوة ·

ثم أصبحنا كلنا نجاهر بهذا الكفر ، وما لبث ضيقنا وسخطنا أن تحول الى حركة ، ودعوة ، وجاء اليوم الذي أعلنا فيه الجهاد ، وقسمنا أنفسنا · فريق يخطب في المساجد ويقول : يا أخوانا الحكومة فتحت مستشفيات ، عليكم بها ودعوا الطرفة · وفريق وقف بجوار الشجرة يستقبل كل من جاء ويشرح له ويحاول أن يثنيه عن عزمه · وكان الناس ينظرون الينا ونحن نفتح افواهنا ونخرج منها كلاما سريعا كثيرا ، ويهزون رؤوسهم ويقولون لبعضهم البعض : كلام حلو يا أخي · كلام مضبوط ·

واعتبرنا ان المسألة قد انتهت وان عيون الناس قد سلمت على أيدينا وأننا نستحق على مجهوداتنا تماثيل شكر وآيات تكريم · ولكننا بعد مضى أيام اكتشفنا أن الناس لم تكف عن استعمال أوراق الطرفة ولا حتى اختفى الجالسون تحت الشجرة ينتظرون هبوط الندى·

وقلنا الى الجهاد من جديد ·

وظللنا أياما كثيرة نكلم الناس ونناقشهم ونضرب لهم الامثال فيهزون رؤوسهم ويوافقون بل يغالى بعضهم في لوم نفسه ويقول : لا مؤاخذة يا فندي انت وهوه · أصلنا جهلة · والجاهل أعمى · والعتب على النظر ·

ولا نتركهم حتى يبدو عليهم الاقتناع الصادق الاكيد · وما أن يمرض منهم مريض حتى تكون أوراق الطرفة هي أول دواء يوصف وأول ما يستعمل ·

وظللنا أعواما كثيرة نحاول ونيأس ونفشل · وكالعادة لم يستمر جهادنا كثيرا ، فما لبثنا ان نفضنا أيدينا من الامر وقد بدا ان ليس ثمة قوة تستطيع زلزلة ايمان الناس بالطرفة ·

ولكن ابن الصراف ، وكان نحيفا عصبيا عنيدا ، وأن كان قد أصابه اليأس كما اصابنا الا أنه لم يسلم بالهزيمة ، وظل الامر يشغل باله ويكاد لا يفكر في غيره·

وذات يوم عنت له فكرة ، فأخذ أوراقا من الطرفة وذهب الى أستاذ في كليته ، وحكى له الحكاية وطلب منه تحليل الاوراق ·

وفوجئنا حين أثبت التحليل أن في الورق نسبة من كبريتات النحاس التي تصنع منها القطرة ·

وأشعنا الخبر في البلدة ، أشعناه ونحن نصفق ونهلل وكأننا اكتشفنا كنزا كان مجهولا · وقلنا للناس:

لا ضير عليكم من استعمال الطرفة ، ففي أوراقها قطرة ·

وهز الناس رؤوسهم بلا حماس وغمغموا : جالكو كلامنا ·

كل ما حدث أنه ، حين مرت أعوام كثيرة ، وعدنا الى بلدنا موظفين وخبراء ومحترمين ، وجدنا أن شجرة الطرفة لم يعد لها ذلك التقديس القديم ، وانها هزيلة شاحبة لم يعد حولها منتظرون ، ولا تخيف كما تخيف أم الغول ·

ووجدنا الناس قد كفوا عن استعمال أوراقها في علاج العيون · وحين كنا نسألهم عن السبب ونحن مذهولين، كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون : سيبك يا شيخ ·· القطرة برضك أنضف ··

تحليـــــل القصـــــة

١ـ التكنيك والاسلوب :

تتعرض القصة ، كما يظهر لكل من يقرأها ، للتغيرات التي طرأت على المجتمع القروى المصري فمظاهر المدينة مثل الطب العصري تحل تدريجيا محل العادات والتقاليد القديمة التي كثيرا ما يمكن تسميتها بالخرافات · هذا هو ظاهر القصة ولكننا سنرى فيما بعد ان المضمون اكثر تعقيدا وشمولا مما يبدو للوهلة الاولى ، وسنتبين ايضا ان القصة هي اكثر منعرض للصراع بين المفاهيم القديمة والجديدة ، ولكن قبل التطرق الى المضمون دعنا نلقـــي نظرة على الشكل الفني لنكتشف كيف نجح المؤلف في ان يرتفع عن تكنيك الربورتاج ويجعل قصته قطعة فنية مركزه ورائعة ·

المبنى الذي استخدمه ادريس هنا يمكن وصفه بأنه مبنى كلاسيكي خالص يرتكز على ثلاث مقومات او مراحل بارزة وهي :

١ـ الموقف او نقطة الانطلاق : وفيه نرى القرويين يؤمنون بالطرفة ونجاعة قطراتها في تطبيب امــــراض العيون ، بل انهم يكادون يقدسون الطرفة تقديسا ·

٢ـ التطور او الحركة : والحركة هنا سريعة جدا ، الجيل الصاعد المثقف تثقيفا عصريا يبتعد عن الايمان بالطرفة ثم يتمرد على المفاهيم القديمة ويحاول اقنـــاع القرويين بنجاعة الطب العصري ولكن بدون جدوى ·

٣ـ التحول الفجائي : ويحدث هذا في نهاية القصــــة وهو تحول ثنائي ذو اتجاهين متعاكسين ، اذ ان الشباب غيروا رأيهم في قضية الطرفة ولكنهم فوجئوا بان وجدوا القرويين هم الاخرين غيروا رايهم ايضا في الاتجـــــاه المعاكس ويمكننا توضيح التحول الثنائي بالمعادلـــــة التالية :

القرويون أ ـــ ب

الشباب ب ـــ أ

وثمة ملاحظة فيما يتعلق بالمبنى الفنـــي : ليس في القصة ، بطل ، اذ لايمكن باي حال من الاحــــــوال ، اعتبار الراوي الذي يتحدث بضمير المتكلمين ولا حتـــى ابن الصراف بطلا للقصة · وبناء عليه فليس في القصة موقف سيكولوجي يحتاج تحليلا او وصفا نفسانيا · السيكولوجيه الوحيدة التي يمكن العثور عليها في القصة هي السيكولوجيه الجماعية لابناء القرية وهذه ليست بيت القصيد في القصة ·

وفي الواقع فان الطرفة هي البطل الوحيد في القصة ، اذ تحظى بوصف تفصيلي على يدي ادريس فهي «لـــم تكن كبيرة ولا عالية ·· الى اخر الفقرة الاولى · ويجد القارىء ايضا وصفا دقيقا لكيفية استعمال قطرة الطرفة ثم وصفا لعلاقة القرويين النفسيه بالطرفة وجلوسهم حولها عند الفجر ثم نظرة الاطفال الصغار اليها «فكنا نخاف منها ونرهبها ، ونتخيلها بقامتها القصيرة وورقها الرفيع المسنون كعجوز شمطاء تقطع الطريق الى الترعة او كأنها خالتنا ام الغول» وفي نهاية الاقصوصة نجد الطرفة وقد تغيرت احوالها فهي الان «هزيلة شاحبة لم يعد حولها منتظرون ، ولا تخيـــــف كما تخيـــف ام الغول»

والقارىء يفهم بسهولة ولا شك ان الطرفة انما هي رمز ، رمز للمفاهيم القديمة المتأصلة في نفوس القرويين ولكن ، ثمة سؤال ينتصب امامنا في هذه النقطة بالذات اذا كانت الطرفة رمزا مجردا فما فائدة هذه التفاصيل المطولة مثل وصف الاوراق والالوان والاحجام ·· الخ ؟ ويبدو ان الجواب يكمن في ان الوصف الحسي المفصل انما هو للتعمية ولتخدير القارىء وذلك كيلا يغـــدو الرمز غاية في الشفافية مما قد يجعل القصة بحثا تجريديا بعيدا عن الحياة النابضة · وهكذا نجد اننا امام فنان ماكر يعرف متى يكون الافصاح ومتي يكون الـــرمز ، ويعرف كيف يختصر حينا ويطول حينا اخر ، كل ذلك بما يتلاءم مع الظروف الفنية للقصة ·

وثمة ميزةاخرى لفن يوسف ادريس تتجلى في هــــذه القصـــة وهـــي الـــروح الفــكاهيــــة العـــابثة التـــي لا تفـــارق المـؤلــف حتى فـــي المـواقــــف الجدية · فعندما يصف قصة نجاعة قطرات الطرفة نجده يقول على لسان الراوي : «واغرب ما في الامر ان الشفاء كان يحل فعلا · صحيح انه في احيان كثيرة لم يكن يحل الشفاء · احيانا كان يتضاعف المرض واحيانا نادرة كان يحل العمي والعور» وواضح ان المؤلف يتهكم هنا بطريقة «الضحكة المكتومة» التي كثيرا ما يكون لها اثر اقسى وامر من الضحكة المقهقهة· ويجد القارىء مثل هذا النوع من الفكاهة بوفرة في القصة مثل «اننا نستحق تماثيل شكر وايات تكريم ··»

او «وقلنا الى الجهاد من جديد» وغيرها · وجملة القول ان القصة تتسم بجو من الطرافة والدعابة لا يتناقض مع جدية الموضوع ورصانته لسبب واضح هو ان المؤلف حافظ على الموازنة بين الجد والهزل ونثر دعاباته بين ثنايا الوصف الجدي ·

اما اللغة فهي عند ادريس في غاية البساطة والسلاسة بل انها تقترب من لغة الحياة اليومية ولا تكاد نجد فيها الفاظا او تعابير رنانه ، او وصفا مسهبا للطبيعة والعواطف الانسانية ·

ولكن هذا كله لا يعني ان القصة تعوزها البلاغة الحقه فالعكس هو الصحيح ، اذ ان البلاغة الادبية كما يفهمها النقد الحديث هي ليست تكديسا للتعابير الجميلة الفخمة بحاجة او لغير حاجة · الاسلوب البليغ هو الاسلوب الوظيفي المركز ، وهذا كله نجده في اسلوب ادريس في اوضح صوره · وقد يعترض البعض قائلا : اذا كان الامر كذلك فما الفرق بين هذه اللغة ولغة الصحف ؟او بعبارة اخرى : اين الجمال الفني في هذه اللغة علما انها لغة فن وليست لغة ريبورتاج ؟

والجواب على هذا السؤال سيتبين اكثر عندما نبحث في موضوع القصة ، اذ سيظهر لنا ان اللغة هنا ليست مسطحة كلغة الوصف الصحفي ، وعند قراءة القصة ثانية سيكتشف القارىء ابعادا جديدة للالفاظ وللجمل كان قد مر عليها مر الكرام خلال قراءته الاولى ، وسيكتشف ايضا ان بعض الكلمات استغلت للتعبير عن أكثر من معنى ، فمثلا عندما يخاطب الشباب القرويين نجدهم يقولون : «يا اهالي ، الطرفة تعمي كل ذي عينين» ـ هنا استعملت كلمة عينين بمعنين اولهما المعنى المحسوس (البصر) وثانيهما المعنى المجازي (البصيرة) ·

واخيرا قضية الحوار : هنا ، كما نجد في سائر قصصه ، يستخدم ادريس العامية الصرفة دون تحفظ او تردد ، ولكن هذا الامر ليس بارزا في قصتنا وذلك لقلة الحوار فيها · وقد يلاحظ القارىء ان الشباب المثقف يتحدث بلغة اقرب الى الفصحى بينما يتحدث القرويون بالعامية الخالصة · فيقول القرويون مثلا : «لا مؤاخذه يا افندي انت وهوه · أصلنا جهلة» · او «جالكو كلامنا» او «سيبك ياشيخ·القطرة برضك أنضف» (وقد كتبت «أنضف» بالضاد تاكيدا لعاميتها) أما الشباب فتسمعهم يخاطبون الناس بالتعابير التالية : «يا اخوانا الحكومة فتحت مستشفيات ، عليكم بها ودعوا الطرفة» او «لا ضير عليكم من استعمال الطرفة ففي اوراقها قطرة» ·

وقد يشير التفاوت اللغوي بين المثقفين والقرويين الى ان ادريس يميل هنا الى الاخذ بطريقة دعا اليها في السابق فرح انطون ومخائيل نعيمة(٤) ولكن يلاحظ أن ادريس لا يلتزم بهذه القاعدة في اكثر قصصه وانما يلجأ الى العامية الخالصة ·

وهناك ملاحظة اخرى تخص الحوار والرد معا ، اذ نجد هنا ان المؤلف يلجأ بعض الاحيان الى تكنيك يدعي «تكنيك الاقتباس الحر» اي ان الحوار والسرد يتداخلان ويتشابكان احيانا كما نرى في المثل التالي :

«ما من كائن وجعته عينه الا ووصف له احدهم ورق الطرفه · تذهب بعد الفجر الى الشجرة وتنتظر الى ان يهبط الندى · ثم تأخذ عدة عقل من اوراقها وتكسرها» ··· الخ فهنا الجملة التي اولها كلمة «تذهب» ليست في الحقيقة الا اقتباسا لما يصفه «احدهم» عن كيفية التداوي بالطرفة · ولكن هذا الاقتباس لم يفصل عن السرد بأي علامة كانت مما يقرب القارىء من جو القصة ويبتعد به عن الشكليات ·

٢ـ المضمون :

وهنا يتبادر الى الذهن السؤال التالي : هل «الناس» هي صورة من الواقع لااكثر ؟ وهل تهدف فقط الى تصوير الجو القروي وما طرأ في القرية المصرية في المفاهيم الحياتية ؟ يمكننا الجواب بنعم ولا في آن واحد «فالناس» قطعة ادبية واقعية بلا شك ، والواقع الذي نطالعه فيها هو واقع حي رمى اليه المؤلف لذاته ، وقد وصف الواقع بخطوط واضحة مجسمة كما رأينا سابقا ، ثم ان صراع الاجيال في القرية هي الاخرى قضية اجتماعية كبيرة عالجها ادباء كثيرون وما زالوا ولكن ليس هذا كل مافي الامر ، فكل ادب اصيل نجد فيه بالاضافة الى معناه السطحي العام اشارات تفوق المعنى السطحي وترمز الى معان اعمق واشمل · وكل قصة ذات قيمة لابد وان تثير في القارىء احساسا وتداعيات اكثر شمولا ، حتى انه يمكن القول ان كل قصه واقعيه ناجحة لابد وان يكون فيها عنصر رمزي ما ·

فما هو البعد الاعمق لقصة «الناس» ؟ لن استطيع هنا الا ان أدلي باجتهادي الشخصي في تفسير ذلك ، واؤكد ان تفسيرات اخرى لنفس القصة ممكنه جدا ·

في قصتنا ثلاثة محاور وهي ١ـ الطرفة ٢ـ «نحن» ٣ـ «هم» ·

«**نحن**» اي الجيل الجديد من خريجي المدارس الذين اصبحوا من انصار العلم المتحمسين ، والعلم الحديث مصدره الغرب طبعا · (لاحظ تعبير «قانون بويل» الذي لم يورده المؤلف عرضا وانما للتدليل على مصدر هذا العلم) ·

«**هم**» اي القرويون او ابناء البلد الذين تمسكوا بايمانهم بالطرفة ولكنهم في نهاية القصة غيروا موقفهم وفضلوا القطرة الطبية وذلك بالرغم من ان الشباب هم أيضا قد غيروا رأيهم في الطرفة كما رأينا سابقا ·

نستطيع اذن ان نفسر ما حدث في القصة بانه يرمز الى حتمية التطور ، أذ ان القرويين اضطروا اخيرا الى الرضوخ الى ماهو اكثر علما وعصرية، ولكن هذا لايجيب على سؤال محرج : لماذا غير القرويون مفاهيمهم في نفس اللحظة التي اعترف فيها الشباب بنجاعة الدواء الطبيعي (اي قطرة الطرفة) حتى صاروا يشجعون القرويين على الاستمرار في ذلك ؟·· يتضح الجواب على ذلك اذا نظرنا الى القصة كاشاره الى الوضع العام في الشرق العربي والعالم الثالث عامة ، حيث نجد قضية التقليد والتجديد على أشدها · فالطرفة حسب هذا التحليل ليست شجرة معينة في قرية معينه انما هي رمز للتقاليد القديمة التي ورثها الناس جيلا بعد جيل ، وهذه التقاليد ، شأنها شأن الطرفه ، جامدة لا تتطور (قارن ما يقوله المؤلف أو الراوي عن الطرفة : «فهي لاتنمو ولا تصغر ولم يزد حجمها او ينقص طوال اجيال») وفي مقابل **الطرفه** نجد في الجانب الاخر **القطره** وهي طبعا بنت العلم والطب الغربيين ، وبهذا ترمز القطرة الى الاخذ عن الغرب او الى الحل العلمي التكنولوجي ·

وبعد ان افترضنا دلالة لهذين الرمزين الرئيسيين دعنا نستعرض القصة ثانية مرحلة بعد مرحلة :

المرحلة الاولى : الجميع يقدسون الطرفة ويؤمنون بالتقاليد الموروثه كالدين والتقاليد العائلية واللباس ·· الخ وهذه المرحلة تذكرنا بالاحوال التي كانت سائدة في الشرق العربي قبل الاتصال بالغرب ·

المرحلة الثانية : الشباب يثورون على الطرفة اي ان الشباب بعد ان تعرفوا على اسس العلم الغربي اصبحوا يؤمنون بعناصر الحضارة الغربية عامة مثل الحلول العلمية التكنولوجية لمشاكل الانسان والمجتمع · وكلمة الغرب هنا لاتعني طبعا الغرب بمعناه السياسي ، ولا علاقة لها بالنزاع بين الكتلتين الشرقية والغربية اليوم ، اذ ان الحل الماركسي مثلا هو الاخر حل (غربي) بالمفهوم الذي نعنيه هنا ، وتذكرنا هذه المرحلة بما حدث في الشرق عندما اخذ بعض الشباب المثقف ثقافة غربية (وخاصة في اواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي) يتنكر لتقاليده الشرقية ويؤمن ايمانا مطلقا بتبني المفاهيم الغربية ·

المرحلة الثالثة : الشباب يكتشفون فجأة ان الطرفة تحتوى على مادة كيماوية مفيدة لتطبيب العيون فيعترفون بانهم غالوا في محاربة الطرفة · اي انه بعد فترة التطرف للحضارة الغربية طرأ تحول ما على تفكيرهم · صحيح انهم لم ينبذوا العلم والحل العلمي ولكنهم وجدوا من خلال التحليل العلمي المختبري ان بعض التقاليد لها قيمة حقيقية حتى في نظر العلم ولا يمكن اعتبارها خرافات دائما · وتذكرنا هذه المرحلة بما حدث لكثيرين من المثقفين العرب وخاصة في ثلاثينات هذا القرن حين عاد الكثيرون من المتطرفين في التمغرب امثال طه حسين وهيكل الى البحث عن الايجابي في التراث مؤكدين ضرورة الرجوع الى مصادر الثقافة العربية القديمة ·

المرحلة الرابعة : الشباب يعودون الى القرية بعد مرور سنة فيجدون ان القرويين صاروا يفضلون القطرة الطبية ورفضوا نصيحة الشباب بعدم هجر الطرفة · ان عامة الشعب تبينوا الاسلوب الغربي ومالوا الى هجر التقاليد القديمة وذلك في اللحظة ذاتها التي اكتشف فيها المثقفون قيمة هذه التقاليد من جديد · وتذكرنا هذه المرحلة بواقع معين نجده في الشرق حيث الكثيرون من الناس البسطاء يتحمسون للمظاهر الخارجية المادية للحضارة الغربية كاللباس والهندام واساليب المعيشة دون التمسك من العلم بروحه واساسه · وبينما يحاول الغرب ذاته التخلص من بعض المظاهر لحضارته نرى بعض الشرقيين يعتقدون بتفوق كل ما هو غربي ·

من هنا يظهر لنا ان تحليلنا للقصة يجعلها اقوى واعنف مما هي عليه في ظاهر الامر · ففي القصة الواقعية يفضل القرويون القطرة لانها (انضف) وهذا ليس بالامر السلبي حتى اذا كانت الطرفة مفيدة ايضا أما تفسيرنا للقصة فيعطي هذا التحول معنى الابتعاد عن تقاليد لا تخلو من عناصر ايجابية واللجوء الى حلول مقتبسة من الخارج · وبكلمة اخرى ، هنالك نقد غير مباشر للمتطرفين في الاخذ عن الغرب · ويمكن الافتراض بأن المؤلف يوافق الشباب الذين استنتجوا ان لاحاجة الى هجر الطرفة اي انه يدعو الى الاتزان والاخذ بالصالح من الحضارتين الشرقية والغربية على حد سواء ·

ومن الجدير بالذكر ان هذا الرأي ، اي الاخذ بالصالح من الحضارتين ، ليس بجديد ابدا ، بل ان اكثر المفكرين والادباء منذ عصر النهضة وحتى يومنا هذا يميلون الى مثل هذا الرأي · ثم ان الادب العربي الحديث وخاصة الرواية والاقصوصة منه ، كثيرا ما يعالج هذه القضية ، بل يمكن القول بأنها قضية القضايا التي يعالجها هذا الادب عامة ، ويكفينا هنا ذكر «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي ، «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم ، «قنديل ام هاشم» ليحيى حقي (٥) ·

ولكن عظمة الاديب لاتقاس بجدة مواضيعه ، اذ ان كل اديب كبير تقريبا يعالج مواضيع كالحب والحقد والسعادة والبؤس والموت ·· الخ ·

واظن ان قضية الصراع بين القديم والجديد بالنسبة للعالم العربي ليست اقل اهمية من هذه المواضيع الكبيرة · ان الذي يجعل الادب ادبا حقا هو الصياغة الجديدة الفذة التي يعطيها الاديب لموضوع قد يكون طرق قبله ، ولا شك ان ادريس استطاع في قصة «الناس» ان يعالج موضوعا مطروقا بأدوات فنية جديدة وبصياغة لم يسبقه اليها احد · وهكذا استطاع ان يرقى بمشكلة محليه ، كمشكلة مواجهة الانسان العربي للغرب من نطاقها الاجتماعي الوقتي الى مستوى التجربة الانسانية الشاملة ·

هوامش

١ـ ليوسف ادريس مسرحيات عديدة (كاللحظة الحرجة ، الفرافير ، المهزلة الارضية ، المخططون ، الجنس الثالث) وكذلك روايات قصيرة كالحرام والعيب ورواية طويلة نشرت مؤخرا (البيضاء) ولكن ذلك لا يغير من حقيقة كونه كاتب اقصوصة اولا وقبل كل شيء · وانظر حديث يوسف ادريس مع غالي شكري في مجلة «حوار» عدد ١٩ ، نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٦٥ ، ص· ٤٠ ـ ٥٣ ، وكذلك حديثه مع نبيل فرج في «المجلة» عدد ١٦٩ ، يناير ١٩٧١ ص ١٠٠ـ١٠٥ ·

٢ـ ويلاحظ ان المؤلف نشر القصص التي تضمنتها مجموعة «اليس كذلك» تحت اسم جديد «قاع المدينة» عام ١٩٧٠ · وبمقارنة المجموعتين يتضح لنا بأن لا فرق بينهما ، وطبعا يضم كتاب «قاع المدينة» قصتنا «الناس» ·

٣ـ قبل شهور صدرت في تل ابيب مجموعة من اقاصيص يوسف ادريس ترجمها الى العبرية الاديب توفيق شموش وقدم لها كاتب هذه السطور · كما وقد ترجم الاديب شموئيل رجولنت قصة «جمهورية فرحات» ونشرها في مجلة «كشت» عدد ٤٧ (العدد الخاص بالادب العربي الحديث) ·

٤ـ انظر مثلا مقال «الرواية التمثيلية العربية» لمخائيل نعيمة في كتابه الغربال ط/٧ بيروت ١٩٦٤ ص· ٢٩ ـ ٣٦ ·

٥ـ انظر مقال :

M.M. Badawi, (The Lamp of Umm Hashim — The Egyption Intellectual between East and West), Journal of Arabic Literature, Vol. 1 (1971), pp. 145 — 161.